الباب التاسع

علماء الغرب وابن خلدون

- أحكامهم على أعماله العلمية
- أخطاء وقعوا فيها
- علماء محايدون

علماء الغرب وابن خلدون

(١)

أحكامهم على أعماله العلمية

لقد تابع كثير من علماء الغرب – من مستشرقين ومفكرين ومؤرخين – أعمال ابن خلدون ، ودرسوا أفكاره بإعجاب كبير ، ولكنَّ عدداً كبيراً منهم نزع عنه صفته الإسلامية ، وبعضاً آخر منهم جرده من هويته العربية ، وكأنما ضنوا على المسلمين والعرب أن يخرج من بينهم مثل هذا العالم المرموق ، ولو أنهم تأملوا قليلاً لوجدوا أن عشرات من علماء المسلمين نظراء لابن خلدون ، كل فى ميدانه قدملأوا أركان الدنيا علماً وابتكاراً ، ولقد كتبوا هم عن هؤلاء العلماء ، من أمثال : البيرونى ، والرازى ، والكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، وابن طفيل ، والزهراوى ، وابن رشد ، وابن النفيس ، وابن الهيثم ، وموسى بن شاكر وأولاده ، والطوسى وغيرهم ، ولكن العصبية الشخصية كثيراً مّا تفرض نفسها على العمل العلمى فتفسده وتوقع الخلل به حين يوضع فى الميزان .

إن الفيلسوف الإسبانى « خوسيه أورتيجا إى جاست » يطلق على ابن خلدون لقب فيلسوف التاريخ الإفريقى ، ويعدّ « المقدمة » من حيث الزمن أول كتاب يؤلف فى فلسفة التاريخ ، ويذكر أن الذى كان يطمح إلى هذه المكانة هو القديس أوغسطين ، لولا أنه عنى بعلم اللاهوت فى التاريخ ، ثم يصف خوسيه ابن خلدون قائلاً : عقلية

واضحة كلها ضوء ، وإن ضوءه الفعلى يمزّق كل غموض ، ويصل ثَقْباً إلى الأشياء ، ويستخرج منها كتاباً يبدو كأنه الذى كتبه مهندس بارع ، ثم يستطرد قائلاً : وكتابه عن فلسفة التاريخ –أى المقدمة– هو فى نفس الوقت أول علم الاجتماع[1] .

ويعتقد المستشرق الإسبانى بونس بويجس Pons Boigues أن ابن خلدون من أعظم الشخصيات تمثيلاً للتاريخ الفلسفى البعيد المدى ، وينسبه إلى أصل إسبانى ، ويذهب مذهب المستشرق الإسبانى ريبيرا فى الفخر به قائلاً : إن الوطن الإسبانى يستطيع بحق أن ينسب إليه أعظم إنتاج تاريخى فى العلوم الإسلامية[2] .

وهناك مؤرخ إسبانى آخر هو رافائيل ألتاميرا Rafael Altamira يجرى تعقيبات على آراء ابن خلدون فى افتتاحية المقدمة ووصفه لعلم التاريخ ، والشروط التى ينبغى توفرها فى المؤرخ ، ثم يقول : إن المقدمة هى نظرية للحضارة حقيقية وكاملة ، ثم يجرى بعض التحفظات على المغالاة فى تقدير قيمة ما أسماه بابتكارات ابن خلدون ؛ لأنه بعيد جدًّا عن أن يحقق المقتضيات الحقة للنظريات التاريخية ، ولكن « ألتاميرا » يعود فى الوقت نفسه فيصف ابن خلدون بأنه قوة عقلية جبارة ، ومخترع عبقرى ، يبنى فوق سوابق ضئيلة عملاً هو فى معظمه جديد[3] .

ويضع « استيفان كلوز يو » ابن خلدون فى مقدمة فلاسفة التاريخ والاقتصاد والاجتماع على حد سواء ، ويقول : إذا كانت نظريات ابن خلدون عن حياة المجتمع المعقدة تضعه فى مقدمة فلاسفة التاريخ ، فإن مهمة الدور الذى يؤديه العمل والملكية والأجور يضعه فى مقدمة علماء الاقتصاد المحدثين . كما أنه استطاع فى العصور الوسطى أن يكتشف مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسى قبل كونسيدران الفرنسى الاشتراكى (١٨٠٨ – ١٨٩٣) وكارل ماركس الألمانى (١٨١٨ – ١٨٨٣) وباكونين الاقتصادى الاجتماعى الروسى (١٨١٤ – ١٨٧٦)[4] .

---

(١) نظريات ابن خلدون فى المسائل الإفريقية : مجلة **El Espectador** المجلد الثامن بمدريد ١٩٣٤ ص ١١ ٣٨ ترجمة محمد عبد الله عنان .

(٢) ابن خلدون لمحمد عبد الله عنان ، ص ١٨٢ .

(٣) آراء حول نظرية ابن خلدون التاريخية – ترجمة محمد عبد الله عنان .

(٤) ابن خلدون لعنان ص ١٨٧ .

ويفرد ناثانيل شميت N. Schmidt الأستاذ السابق بجامعة كورنل بأمريكا دراسة عن ابن خلدون كمؤرخ واجتماعي وفيلسوف ، ويرى إمكان وضعه فى صف مؤرخين عالميين مثل تيودور الصقلى ، ونقولا الدمشقى ، وتروجوبومبيو من مؤرخى القرن الأول الميلادى ، أوجاتيرر ، وشلستر من مؤرخى القرن الثامن عشر ، كما يقرر شميت أيضاً أن ابن خلدون هو الذى اكتشف ميدان التاريخ الحقيقى وطبيعته ، وهو أول من استطاع أن ينظر إلى التاريخ كعلم خاص يبحث الحقائق التى تقع فى دائرته ، بل إن أحداً غير ابن خلدون لم يقل إن التاريخ علم خاص ، موضوعه بحث جميع الظواهر الاجتماعية فى حياة الإنسان ، ثم يستطرد قائلاً : إن ابن خلدون برغم طابعه الإسلامى فهو فيلسوف مثل أوجست كونت ، وتوماس بَكِل ، وهربرت سبنسر[٥] .

ويكتب المؤرخ الألمانى فون فيسيندونك Von Wesendonk بحثاً عن ابن خلدون فى مجلة دو يتشه رونتشاو[٦] بعنوان : ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربى فى القرن الرابع عشر ، يقرر فيه أن ابن خلدون من أصل عربى نزح إلى الأندلس ، ويشيد بالمبادئ التى توصل إليها ، والتى يرى أنها تدعو للتأمل الصادق الدقيق ، ثم يقول : يقف مؤرخ الحضارة الإسلامى العظيم وحيداً فى المشرق لم يعقبه خلف ، ولم ينسج على منواله ناسج ، ويستطرد قائلاً : وتدوى ميول المفكر والسياسى الإفريقى فى معترك الحوادث مهما كانت وجهتها دويًّا يتردد صداه فى عالم عصرنا .

ويتحدث المؤرخ الشهير المعاصر أرنولد توينبى Arnold Toynbee عن ابن خلدون حديث الثناء والإعجاب بشخصه وريادته العلمية ، ولكنه يحمل حملة شعواء على الحضارة الإسلامية أشد بكثير مما فعل غيره من بعض الباحثين الذين مر ذكرهم ، وهو موضوع سنعود إليه بعد قليل .

---

(٥) المصدر السابق ص ١٨٨ — ١٩٠ .

(٦) عدد يناير ١٩٢٣ .

يقول توينبى عن ابن خلدون : إنه آخر عضو من نجومنا المؤرخين ، وأما النجوم الآخرون الذين ذكرهم فهم : توكوتيدوس ، واكسنوفون ، ويوسيفوس ، وميكيافيللى ؛ وبوليبوس ، ولورد كلارندون .

ويطلق توينبى على المقدمة – باعتبارها العمل الجليل الذى قام به ابن خلدون – « عمل الحياة » ويذكر أنه يمكن أن تقارن بعمل ثيوديد (توكوتيدوس) أو عمل ميكيافيللى (فى كتابه الأمير) وذلك من حيث عمق الأفق واتساعه ، ومن حيث القوة العقلية المحضة ، ولكن نجم ابن خلدون يبدو أكثر تألقاً إزاء كثافة الظلام التى خيمت أمامه ، ذلك أنه بينما نجد ثيوديد وميكيافيللى وكلارندون كلهم نماذج ساطعة لأوقات ساطعة إذ بابن خلدون يبدو وحده نقطة الضوء الوحيدة فى ذلك الأفق .

وبعد أن يشن توينبى حملة حقيرة على الحضارة الإسلامية وعلى المسلمين تنال من منهجية البحث واتساق السياق ، يعود إلى الحديث عن ابن خلدون حديثاً منقولاً من فيسيندونك الذى مر حديثنا عنه فى الفقرة السابقة ، قائلاً : وهو – أى ابن خلدون – فى الميدان الذى اختاره لنشاطه العقلى يبدو أنه لم يستوح أحداً من أسلافه ، ولم يجد أقراناً بين معاصريه ، كما أنه لم يشعل شرارة إلهام مجاوبة فى أحد من خلفائه ، ومع ذلك فإنه فى المقدمة التى وضعها لكتابه فى التاريخ قد ألهم وصاغ فلسفة للتاريخ ، هى بلا ريب أعظم عمل من نوعه ابتكره أى عقل فى أى عصر أو فى أى بلد[٧] .

وتقف باحثة روسية معاصرة هى « سيفيتلانا باتسيفا » من ابن خلدون وفكره موقف الإعجاب والانبهار ، من حيث منهجه التاريخى وهدفه منه ، وتبدى رأيها على هذا النحو : « هدف ابن خلدون أن يجعل من التاريخ وعاءً ضخماً يستوعب سائر ما يحدث فى العمران ، وهو ما تسعى إليه المحاولات الحديثة فى كتابة التاريخ ، تلك النزعة

---

(٧) a Study of History. Vol. III. The growth of civilizations. P. 321 - 328 (Oxford Univ. Press 1956
ترجمة محمد عبد الله عنان ملحقة بكتابه عن ابن خلدون .

التى تجلت فى المؤتمر الدولى للتاريخ الذى عقد فى باريس سنة ١٩٥٠ ، وبها التزمت المجلة التاريخية الفرنسية » وتمضى الباحثة الروسية قائلة : « ويكفى ابن خلدون فخراً أن يكون حدسه أفهمه هذا التصور العريض للتاريخ ، وهداه إلى رسمه كفاية عبر عنها بدقة مدهشة سابقة لعصره وإمكاناته »[٨] .

والحق أن هذا الرأى يعتبر من الجرأة بمكان ؛ لكونه صادراً من باحثة روسية ، فيما لو كانت هذه الباحثة قد غاصت فى فكر ابن خلدون بصدق ودقة وفهم واستيعاب ؛ ذلك لأن أكثر نظريات ابن خلدون وتصوراته السياسية والاقتصادية والاجتماعية صادرة من منطلق إسلامى بحت ، طبقاً لما أوضحناه فى فصول سابقة ومواضع شتى من هذا البحث ، والمعروف بداهة أن الحكومة الروسية لا تعترف بالأديان بل تحاربها ، وتبعاً لذلك فإنها لا ترحب بالنظريات العلمية التى تستمد عناصرها من مبادئ دينية ، أو تقيم قواعدها على أسس إسلامية ؛ ومن ثم فإن الباحثة تكون فى موقف دقيق لو اكتشفت حكومتها أمرها .

هكذا شرح بعض العلماء الأوربيين وجهة نظرهم فى شخصية ابن خلدون وفى أفكاره ، وهكذا قوموا نظرياته ، فوصفوه بما وصفوا به كبار مؤرخيهم ، بل ميزوه منهم بالإبداع الذى لم يسبق إليه ، والابتكار الذى جعل منه رائداً لعلمين جديدين هما فلسفة التاريخ ، وعلم الاجتماع الإنسانى .

(٢)

أخطاء وقعوا فيها

على أن المرء يلحظ بين السطور التى كتبها هؤلاء العلماء الكبار ما يدعو إلى الدهشة حيناً ، وما يدعو إلى الأسف والتقزز حيناً آخر .

---

(٨) العمران البشرى فى فكر ابن خلدون ترجمة رضوان إبراهيم ص ٧٧ ط الدار العربية للكتاب – تونس .

فأما ما يدعو إلى الدهشة فمش ما ذهب إليه كل من المستشرقَيْن الكبيرين ريبيرا ، وبونس بويجس – ولا عليهما فى ذلك – فقد اعتبرا ابن خلدون أندلسيًا، وجعلا الوطن الإسبانى يفخر به ؛ لأن أعظم إنتاج تاريخى فى العلوم الإسلامية – يقصدان المقدمة – ينسب إليه . وإذا كان المستشرقان الكبيران قد اعتبرا ابن خلدون إسبانياً ؛ لأن عدداً من جدوده عاشوا فى الأندلس ، فكان ينبغى من باب تسجيل الحقيقة كاملة ذكر أنه عربى حضرمى فقيه مسلم مالكى .

أما الفيلسوف الإسبانى خوسيه أورتيجا ، فإنه يختلف مع مواطنيه ريبيرا وبويجس ، ولا يعترف بنسبة ابن خلدون إلى الوطن الإسبانى ، وإنما يعده إفريقيًا ، ويطلق عليه « فيلسوف التاريخ الإفريقى » . لكن يبقى أن نتساءل : هل يقصد الفيلسوف الإسبانى بلفظ إفريقية الاصطلاح الجغرافى الإسلامى الذى يطلق على تونس وما حولها اسم إفريقية ، أو أنه يقصد إفريقية بالمفهوم الحديث وهى القارة بأجمعها ، فإذا كان يقصد الأولى فقد صدق ؛ لأن ابن خلدون تونسى الميلاد والنشأة ، وإذا كان يقصد الثانية فقد جانبه الصواب .

وإذا كان فيما ذكره العلماء الإسبان الثلاثة جانب كبير من الصدق ، من حيث ذكرهم لهوية ابن خلدون ، فإن استيفانو كلوز يو – الذى مر ذكره ، والذى وضع ابن خلدون فى مقدمة فلاسفة التاريخ ، وفى مقدمة علماء الاقتصاد المحدثين – يجرد ابن خلدون من صفته العربية وصفته الأندلسية أيضاً ، ويعده بربريًا ، ويصفه بالمؤرخ البربرى العظيم[٩] ، ومع كامل احترامنا للبربر ، فهم إخوتنا فى الإسلام ، وأصحاب سبق فى المشاركة فى الفتح الإسلامى لإسبانيا ، فإن ابن خلدون لم يكن بربريًا ، وإن هذا الخطأ الذى وقع فيه الباحث الكبير يدل دلالة واضحة على أن بعض الدارسين الغربيين لتراثنا لا يغوصون فيه بالقدر الكافى الذى يجنّبهم التردّى فى مثل هذه

(٩) ابن خلدون لمحمد عبد الله عنان ص ١٨٧ .

الأخطاء المعيبة ، وإنما يلتقطون بعض الأفكار دون التعرف الدقيق على صاحب الفكر نفسه نشأةً وثقافةً وجنساً وعقيدةً ، وهى عناصر لا بُدَّ للباحث المنصف من استكمالها قبل أن يخطو فى بحثه أية خطوة إلى الأمام .

إن الخطأ فى هوية ابن خلدون وجنسه شيء لا شك معيب ، ولكنه لا يتصل بجوهر فكر ابن خلدون وبنية نظرياته اتصالاً مباشراً ، أما الشيء المعيب حقًّا فهو محاولة تجريد صاحب الفكر من ثقافته ، وسلخه من عقيدته ، فى أسلوب فج ، وسياق متناقض ، وهو ما فعله شميت الذى مرّ حديثه قبل صفحات قليلة . إنه يثنى على ابن خلدون ثناءً مستطاباً ، ويضعه فى مصاف الرواد والمبتكرين على النحو الذى مر ذكره ، لكنه يقول بغير اكتراث ما نصه : « وإذا كان ابن خلدون يذكر خلال بحثه كثيراً من آيات القرآن الكريم ، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله ، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه فى بحثه متفق مع نصوص القرآن » .

وللمرء أن يعجب كثيراً من هذا القول الذى إن دل على شيء فإنما يدل على أن شميت إما مزيف للحقائق وإما غافل عنها ، وليس بين الأمرين توسط ؛ لأن الشيء الواضح أن العلاقة بين فكر ابن خلدون وبين القرآن الكريم علاقة التحام جوهرية ، وهو ما قد تناولناه تفصيلاً فى فصل مستقل سابق ، وأن الرجل يستشهد بآيات القرآن الكريم ، ويختم بها فصول المقدمة ، طال الفصل أو قصر ، فى تناسق عجيب ، وربط ذكى بين ما يقصده وما ورد فى الآيات الكريمة ، ومن ثمَّ كان من حقنا أن نتساءل فى غضب : كيف يتأتى لباحث يحمل اسماً كبيراً أن يزيف المعانى ويعكس المقاصد ؟ وأما تعليله بأن ابن خلدون يذكر الآيات فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنّه فى بحثه متفق مع نصوص القرآن ، فإنه بذلك يسيء إلى ابن خلدون وإلى القارئ على حد سواء : يسيء إلى ابن خلدون ؛ لأنه يرميه بالتناقض ويسمه بالغش والتضليل حين يوهم القارئ بأشياء غير موجودة ، ويسيء إلى القارئ ؛ لأنه يتهمه بالغفلة والغباء .

ويقع فى الخطأ نفسه فون فيسينلونك V. Wesendonk حين يريد إطراء ابن خلدون فيقول إنه « تحرر من أصفاد التقاليد الإسلامية فى درس شئون الدولة والإدارة وغيرهما » وللمرء أن يتساءل : هل للتقاليد الإسلامية أصفاد ؟ وإن وجدت فأين هى ؟ وكيف لا يوقف الباحث – إذا كان أميناً – قارئه على تلك الأصفاد ؟ لكن يبدو أن هذا النوع من الباحثين يحملون عداوة شديدة للإسلام تجعلهم يخرجون عن نطاق المنهجية العلمية والحيدة البحثية ، فيطلقون الأحكام التى تتفق مع أهوائهم وشهواتهم بدون تعقل أو رشد . ثم ما هو موقف هذا الباحث وأمثاله إذا عرف أن شئون الدولة والإدارة كما درسهما وقدمهما ابن خلدون إسلامية المبدأ والمبنى والمنتهى جملة وتفصيلاً ، وهو ما قد مرّ حديثه فى البابين الثانى والرابع .

ونفس المنهج من الخطأ المعيب ، والتحامل الشائن ، ما قد فعله المؤرخ آرنولد توينبى فى الفصل الذى كتبه عن ابن خلدون ، والذى أتينا بطرف منه قبل عدة صفحات . يقول توينبى عن المفكر المسلم الكبير : « إنه بلا ريب – أي ابن خلدون – الشخصية البارزة فى تاريخ حضارة كانت حياتها الاجتماعية على العموم منعزلة ، مسكينة ، قذرة ، متوحشة ، قصيرة الأمد » . نعم هكذا يصف توينبى الحضارة الإسلامية بالانعزال ، والمسكنة ، والقذارة ، والتوحش ، وقصر الأجل .

لقد وقفنا طويلاً عند هذا الكلام وكدنا أن ننكره ، ولكن النصوص لا ترحم ، وهذا الكلام صادر عن توينبى الذى أصاب من بُعد الصيت وانتشار السمعة فى هذا العصر ما لم يلقه مؤرخ آخر ، ولقد بدا لنا أن الرجل ربما تأثر بما ذكره ابن خلدون عن العرب ، ثم ما لبثنا أن انثنينا عن ذلك ؛ لأن جمهرة المستشرقين ومترجمى المقدمة الذين أخذ عنهم توينبى كانوا واضحين فى ترجماتهم فى أن المقصود بلفظ العرب عند ابن خلدون هم الأعراب ، والأمر الآخر هو أن سياق كلام توينبى يوحى بقوة بأن الحضارة المقصودة هى الحضارة الإسلامية ، وفى هذه الحالة يكون توينبى إما مزيّفاً

للحقيقة ، وإما جاهلاً بأمرها ، ولم يقرأ شيئاً عن حضارة الإسلام أو عقيدته .

وإنه ليعيب – حقيقة وعدلاً وعلماً – مؤرخاً كبيراً مثل توينبى أُوتى من الشهرة ما لم يتوفر لغيره أن يكتب هذا الكلام عن الإسلام ؛ لأن ألد أعداء الإسلام من الباحثين الغربيين لم يقولوا هذا القول ، ولم يذهبوا هذا المذهب فى التهجم على الإسلام ، بل إن المتهجمين على هذا الدين لم يستطيعوا أن يخفوا فضائله أو يحجبوا مزاياه ، ولم يصفه أحد منهم بما وصفه به هذا المؤرخ .

إننا نكاد نقطع بأن توينبى لم يقرأ نصًّا صحيحاً أو خبراً محايداً عن الإسلام ، وكان من واجبه كمؤرخ أن يقرأ – على الأقل – ما كتبه بعض المؤرخين من مواطنيه عن الإسلام ، مثل توماس أرنولد ، أو آربرى ، أو القس جيوم ، أو هاملتون جب ، وليته كان قرأ ما كتبه بعض المفكرين والمؤرخين الفرنسيين – وهو لا شك يعرف الفرنسية – من أمثال ماسينيون ، وجاك بيرك . إنه لو كان فعل لأمكنه أن يتفادى تلك السقطة الكبيرة ، ولما تعرض لتلك الكبوة الخطيرة ، ولَبَادَرَ بالإسراع إلى تصويبها .

ويقع الأستاذ « دى بور » فى تناقض قريب من مثل ذلك الذى وقع فيه شميت ، ولكن بدرجة أقل ، وقد كنا فى فترة دراستنا الجامعية نقبل على كتابه (تاريخ الفلسفة فى الإسلام) ، الذى أجاد ترجمته الأستاذ محمد عبدالهادى أبو ريدة إقبالاً شديداً ، وكنا نرى فيه تيسيراً لنا على فهم الفلسفة الإسلامية وهضم أفكار فلاسفتها ، ولكن الأستاذ « دى بور » حين يعرض لدراسة ابن خلدون يوقع نفسه معه فى تناقض واضح حين يقول عنه : « مفكر متزن ، كثيراً ما يعارض مبادئ الفلسفة العقلية بمبادئ الإسلام البسيطة ، سواء عن اعتقاد شخصى أو لاعتبار سياسى » . ثم يتبع ذلك بما يناقضه قائلاً : « بيد أن الدين لم يؤثر فى آرائه العلمية بقدر ما أثرت فيه الأرسطوطالية الأفلاطونية » ثم يقرر فيما يشبه التأكيد أن جمهورية أفلاطون وفلسفة فيثاغورس الأفلاطونية قد أثرتا فى ذهنيته .

إن دى بور يقرر فى الفقرة الأولى أن ابن خلدون يعارض مبادئ الفلسفة بمبادئ الإسلام ، ونحن نغضّ الطرف عن التبريرين اللذين ساقهما فى هذا السبيل ، ثم يعود فينقض رأيه هذا برأى مضادّ ، هو أن الأرسطوطالية الأفلاطونية قد أثرت فى آراء ابن خلدون بأكثر مما أثر فيها الدين ، فهل هناك تناقض أكثر وضوحاً من هذا التناقض ، هذا ، وإن الرأى الذى يقول بتأثر ابن خلدون بفلاسفة اليونان الذين مر ذكرهم لا يزال من الضعف بمكان ، وهو مستبعد عند جمهرة العلماء الغربيين الذين كتبوا عن ابن خلدون ، حتى إنهم لم يكلفوا أنفسهم مجرد الإشارة إليه ، هذا فضلاً عن موقف ابن خلدون الشخصى من الفلسفة والفلاسفة ، فليت أن الأستاذ « دى بور » تمسّك برأيه الأول ، وفى تلك الحال كنا نضيف إليه أن المفكر المسلم الكبير لم يعارض مبادئ الفلسفة بمبادئ الإسلام وحسب ، وإنما بنى آراءه كلها على أسس واضحة استمدها جميعاً من مبادئ الإسلام .

(٣)

علمـاء محـايـدون

على أن هناك من دارسى ابن خلدون الغربيين من تعمّق فى دراسة شخصية العالم الكبير ، وفطن إلى أثر الإسلام فى فكره ، وربط بين شخصه وعقيدته الدينية ربطاً واضحاً مباشراً ، فمن هؤلاء الباحثين العالم الاجتماعى المرموق لودفيج جمبلوفتش الذى يعلى من قدر ابن خلدون ، ويسجل له قصب السبق فى ابتكار علم الاجتماع على شخصيات كبيرة من أمثال كونت وفيكو . يقول جمبلوفتش : « لقد أردنا أن ندلل على أنه قبل أوجست كونت ، بل قبل فيكو الذى أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعى أوربى ، جاء مسلم تقى ، فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، وأتى فى هذا الموضوع بآراء عميقة ، وإن ما كتبه ، هو ما نسميه اليوم علم الاجتماع »[١٠] .

---

(١٠) ابن خلدون لمحمد عبد الله عنان ص ١٨٠ .

هكذا وبكامل الوضوح ينسب جمبلوفتش ابن خلدون إلى عقيدته الدينية ، ويقرر أنه من الأتقياء ، ولعله يقصد بهذا الوصف أنه من كبار علماء الإسلام ، ثم يربط بين شخصية ابن خلدون التى حددها فى إطار كونه من عظماء المسلمين ذوى العقول المتزنة ، وبين العلم الجديد الذى وضع أسسه وهو علم الاجتماع .

ومنهم أيضاً الأستاذ هاملتون جب Sir Hamilton Gibb الذى كان واسع الاطلاع على شخصية ابن خلدون نشأة وثقافة وفكراً ، وقد ساعده على ذلك إجادته للغة العربية وفهم نصوصها ، وإلمامه الواسع بالحضارة الإسلامية ، وكثرة تردده على البلاد العربية ، وقوة صلاته بمجامعها العلمية وشخصياتها الفكرية المعاصرة التى ارتحلت إلى العالم الآخر خلال العقدين الماضيين من السنين .

يقرر جب فى سياق بعض مباحثه عن ابن خلدون أنه كان من كبار علماء المسلمين ، ومن الشخصيات المرموقة فى مذهب الإمام مالك ، وأنه على سعة أفقه لم يصدر رأياً واحداً يجافى تعاليم الإسلام ، بل إن مفاهيمه المتطورة كانت تطويعاً للمجتمع من منطلق روح المبادئ الإسلامية[11] .

هكذا نجد تصوراً واضحاً لدى كثير من الباحثين الغربيين – إلا قلة منهم – فى فهم الأساس الفكرى لابن خلدون وخلفيته الإسلامية المستفيضة عرضاً ، البعيدة غوراً ، الضاربة عمقاً ؛ ومن ثم كانت أوصافهم له متسمة بالإعجاب ؛ لأنه أعطاهم شيئاً جديداً ، ولكنهم لم يفهموا ، ورفض بعضهم أن يفهم . إن هذا الشىء الجديد الذى أعطاهم إياه ابن خلدون – وبخاصة نظريته فى العمران البشرى وعلم التاريخ – قد صدر من منطلق إسلامى بحت .

---

(١١) بحث عن « الأساس الإسلامى للنظرية السياسية لابن خلدون » : مجلة مدرسة الدراسات الشرقية الجزء الأول من المجلد السابع ص ٢٣ وما بعدها .